

الفصل الثامن عشر

التقليد

ببغاوات لا تحسن إلا التقليد

إحدى طرق إصابة أطفالك ببلادة الحسّ نحو الله هو أن تجعلهم يستعرضون معلوماتهم الدينية ويتباهون بها. فالوالدان اللذان يهتمان بمظاهر العبادة الخارجية يقعان غالباً في الحالة المرّضية التي أصابت الفريسيين. لذلك لا تدربهم على مهارات التظاهر والنفاق. لا تدربهم ليكونوا «كالمُرَائِين، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يُظَهَرُوا لِلنَّاسِ. الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ!» (متى ٦: ٥).

قبل أيام، دعوت أسرتي للخروج لمشاهدة كلبنا وهو يقوم بلعبة جديدة. أعطيته الأمر، لكنه كان مُشْتَتّاً بسببهم فلم يعبأ بي. كنت قد قاطعت جدولهم على وعد بتقديم هذه الخدعة، أمّا هو فتصرف وكأنه لم يرني من قبل، بل ولا يعرف ما أقول. اضطربت لذلك فبدأت أضغط عليه ليؤدّي اللعبة، فجعلني أبدو أحمق في نظرهم. «بأي حق يفعل هذا معي؟ أنا، من دون الناس. كانت أسرتي ستعتقد أنني «شاطر» جداً، والآن أبدو كالأحمق. كلب غبي. أكيد أن به عيب خلقي». أمّا الكلب فأحسّ برفضني، فبدأ ينفر منّي. لكي يحصل على رضاي، يجب أن يحسّن مظهري أمام الناس. فعلى كلّ، أليست فائدة الكلب أن يرفع رأس صاحبه؟

حدث معي أكثر من مرة أن أوقف والدان طفلهما الصَّغير أمامي وقالاً: «قُلْ «مجداً للربِّ» للأخ مايك». وبعدما ينتهي الطفل من تقديم عرضه، يتبسم له الجميع ويمدحونه. ثم تنفرج أسارير الوالدين كما لو أنهما سمعا إعلاناً بفوز كلبهما في مسابقة التقاط الطبق الطائر السنوية. يجب تجاهل الأطفال الصَّغار تماماً عندما يتلون صلواتهم أو يحاكون صلوات الكبار بأسلوب ظريف، وإلاَّ شجعتَ فيهم الرياء. لا تعطِّهم «صورة التَّقوى». إنه فخٌ رخيص تقع ضحية له، يا من تعلِّم أطفالك التفوُّق على أقرانهم في العبادة الدِّينية. تنال أنت وأطفالك مكافآتكم هنا والآن، وتلك هي كل المكافئة التي يستحقها مثل هذا التمثيل المسرحي. «أَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ!» (متى ٦: ٥).

لأبِّ حسن النِّيَّة طفلان يُحسِنان الغناء. لذلك ينتهز كل فرصة تجمع للناس فيُمَتِّعهم بترتيلهما. تلك الترانيم الخلاصية، عندما يرثمها شخص آخر، تعود ببركة على السامعين، لكنها من فم هذين الطفلين المنحصرين في ذاتهما ألم لا يطاق. ترنيمهما ظريف جداً. لكن حين يتبختران في زهو وخيلاء عائدين إلى مقعديهما، يمدحهما أبوهما ويتبسم ملء شذقيه، كما أفعل مع كلبتي إذا أدَّى خدعة أو لعبة ظريفة.

ذات مرة نسي هذان «البغاوان» الكلمات ولم يباليا كثيراً بتأدية العرض، فقلق الجمهور واضطرب الأب. كيف لا وفصله المسرحي ينهار أمام عينه! فأخذ «يحايلهما» ويشجعهما حتى رأيت فيه نفس

المشاعر التي استولت عليّ نحو كلبّي عند فشله في أداء اللعبة. الفرق هنا هو أن الكلب لن يعاني من استعراضه أمام الناس هكذا، أمّا هذان الطفلان فهما يعانيان بالفعل. إن طموح الأب نحو نفسه ونحو طفليه يتجاوز اهتمامه بمصلحتهما الروحية. أو لعله يفتقر إلى الحكمة والتّمييز. وما أسرع حلول الدمار في هذا العالم الذي يسيطر عليه الشيطان.